الفصل الخامس

تعقيب

المؤثرات فى حياة الإنسان الاجتماعية

اقتصرت أبحاث هذا الكتاب على الإنسان . ذلك لأن للانسان قدرة عظيمة على القيام بالأعمال المختلفة تظهر لنا واضحة جلية متى قابلناها بأعمال أنواع الحيوانات الأخرى . فالإنسان وحده هو الذى يتكلم ، ويقرأ ، ويكتب ، ويعبد واجب الوجود ، وينشئ ناطحات السحاب ، ويقدر مراكز النجوم وأفلاكها لمستقبل يمتد مداه إلى ألوف السنين . ولسنا نقصد بهذا أن نستخف بأعمال القردة . تقوم القردة بأعمال تعتبر جليلة إذا قيست ببقية أنواع الحيوان . مثال ذلك أن الشمپانزى قد تعلم أن يدير آلة لتوزيع الطعام ؛ لقد تعلم أن يحصل على الطعام بوضع قطع معدنية مخصوصة فى الثقوب المعينة لذلك ، وأن يميز بين الأحجام المختلفة والألوان المتغايرة ، وأن يدفع كل قطعة إلى ثقبها الخاص ، وأن يدخل — عند الضرورة — قطعتين فى الثقب الواحد . فليست القدرة على التعلم حبساً على الإنسان ؛ إلا أن القردة عجزت عن تعلم اللغة ، أو تعلم الحركات المعقدة . والفرق بين قدرة الإنسان وقدرة القرد على التعلم هو من حيث الدرجة فقط ؛ ولكنه مع ذلك فرق جوهرى بعيد المدى .

ولما كان قعود القرد عن القيام بكثير من الأعمال ناتجاً عن عجزه عن التكلم فلنا أن نتساءل : هل عجزه عن التكلم ناتجٌ عن أنه لا يسمع أحداً يتكلم لغةً ما ؟ وماذا يكون الحال لو أن قرداً صغيراً تربى كما يتربى طفل الانسان ؟ والجواب على هذا جاء من مستر كيلوج وزوجته : فقد ربيا قردة

صغيرة من نوع الشمپانزى مع ابنهما عندما كانت سنه عشرة أشهر ، وكانت سِنُّ القردة سبعة أشهر ونصف الشهر ، واعتنيا بهما عناية طيبة ، وعاملاهما معاملة متماثلة : فكانا يأكلان معاً ، وينامان معاً ، ويلعبان معاً . ولما كانت القرْدةُ أقوى من الطفل ، وكان نموُّها الجسمى أسرعَ من نموّ جسمه ، فقد كان من الطبيعى أن تكون أمهرَ منه فى الحركات ، وأنفذ منه فى الشؤون العملية كتسلق الأشجار ، والقيام بالأعمال البهلوانية ؛ وقد بذّته إلى حدّ بعيد فى سرعة الحركة . وأعظم من هذا أنها تعلمت كثيراً من الحركات التى يتعلمها الطفل المتمدّن : لقد أخذت تستعمل الملعقة على الوجه الصحيح فى الأكل ، وشربت السوائل فى الأكواب الزجاجية ، وحذقت النط بالحبل ، وفتح الأبواب وإقفالها . وأتقنت كلّ هذه الحركات أكثر من الطفل ، وكانت أنصت منه لتلقى الأوامر ، وأطوع منه فى تنفيذها . أما فيما يتعلق بمسألة التكلم ، فقد قبعت القرْدة فى المؤخرة . لقد « أدركت » معنى كلمات كثيرة ، وفهمت جُملاً عديدة ، ولكنها عجزت عن التكلم . غير أن الطفل ، طبعاً ، تعلم التكلم على الوجه المألوف [١] .

يجب أن نفترض أن هذه البراعة الممتازة فى التكلم هى مطبوعة ، اختصت الوراثةُ الإنسانَ بها . ولا يمكن أن تنشأ من حياة الجماعة فقط ؛ ذلك لأننا نشاهد الحيوانات الدنيا تعيش جماعات كما يعيش الانسان . ولا يصحُّ أن تعزى إلى البيئة وحدها ، فالشمپانزى تربّى فى محيط إنسانى جنباً الى جنب مع طفل إنسانى ، ومع ذلك فقد ظهر أن قابليته هى دون قابلية الطفل بكثير . إن الإنسان وحده — دون سائر الحيوانات — قادر على تعلم اللغة ، قادر على حلّ

---

١ — John wolfe , Effectiveness of token Reward for Chimpanzees . 1936 - as quoted in A Handbook of Sociology, p.1 by ogburn and Nimkoff W. N. and L.A. kelogg, The Ake and The child.

أصعب المسائل الرياضية ، متمكن من تصميم الطائرات وبنائهـــا ، وله من المؤهلات ما يكفى أن يجعل منه وزيراً محنّكاً . على أننا نجهل بمعرفتنا الحاضرة حدود قابليته للتعلم .

وهنالك أربعة عوامل تؤثر فى حياة الانسان الاجتماعية ، هى : المحيط الطبيعى ، والتراث الاجتماعى Social Heritage ، والوراثة ، والجماعة . وكل هذه العوامل تؤثر تأثيراً جليـــلاً فى حياة الإنسان وتجاربه . ولا يمكن للباحث — إن تغاضى عن دراستها — أن يصل إلى وصف دقيق لتلك الحياة ، أو أن يتوصل إلى معرفة كنهها . ومن الغريب أن هـذه العوامل المختلفة لا تؤثر منفردة ومستقله . إنها تعمل متحدة ؛ وتقوم بينها صلات وعلاقات لا تنفصم عُراها . وتقوم الثقافة — فى رأى علماء الاجتماع — على قوى الإنسان العقلية السامية . وليس للقردة تراث اجتماعى من أى نوع كان ؛ ولعلّ السبب الرئيسى فى ذلك هو فقدانها للقوة العقلية الكافية . إن للجماعة أيضا تأثيراً كبيراً فى إنماء الثقافة ؛ ويستحيل علينا أن نتصور وجود تراث اجتماعى إذا كان كل فرد من الناس يعيش فى عزلة عن بقية أبناء العالم . وهنالك ولا شك صلة قوية بين الثقافة والجغرافيا . ونقصد بالثقافة هنا الحركات السلوكية التى يرثها الخلف عن السلف بعضهم من بعض ـ جيلا بعد جيل ـ من طريق التعلم . ولكى نتمكن من إدراك حقيقة حياة الإنسان الاجتماعية لا بدّ لنـــا من الوقوف على الصلات القائمة بين الثقافة وعلم الأحيـاء ! وبين الثقافة والجماعة ؛ وبين الثقافة والجغرافيا . ويمكن إرجاع حركات الإنسان السلوكية إلى أصلين : أولا : إلى الوراثة ؛ وثانيا إلى التعلم من الجماعة . فيأخـذ الإنسان عن الوراثة مثلا الرضاعة ، والبلع ، وتحريك العينين وما إلى ذلك من الحركات ؛ ويتعلم من الجماعة تـكلم اللغة العربية ، ولبس الطربوش ، وقيادة السيارات وما إلى ذلك . أما عمليـات اكتساب هذين النوعين من الحركة فليست واحدة ، وإنما ، هى متغايرة ومختلفة . فأما

الأولى فهى عملية بيولوجية تنتقل بواسطة جراثيم الحياة فى البويضات ؛ وأما الثانية فهى عملية بسيكولوجية اجتماعية ، تتضمن الانتقال بواسطة نظام الاتصال مبنى على قدرة الإنسان على التعلم .

لقد وُجد أصل الاجتماع والثقافة فى أبعد العصور القديمة فى عالم الحيوان ، غير أن انعدام التكلم ، حتى بين الطبقات العليا من القردة ، يحدّد إلى أمد بعيد الكميةَ المحرزة فى التفهم والثقافة على السواء . والإنسان وحده هو الذى يحرز ثقافة حقيقية . وقد أتمّ له تلك الثقافة لأن ينظم شؤون حياته .

والتنظيم هو حركة فعالة تقوم بها الجماعة لكى تنفّذ عملا ما . فلو افترضنا أن كرة كبيرة تحتاج فى زحزحتها ونقلها من مكانها إلى قوة قوامها أحد عشر رجلا ، يقاومهم فى ردّهم عن هدفهم عددٌ مماثل من الرجال ، فلا شك أن تنظيمهم إلى مهاجمين ومدافعين يُعتبر خطة اجتماعية مُثلى . ذلك لأنهم يصيبون نجاحاً أكبر مما لو تقدموا يضربون على غير هدى دون التزام أى نوع كان من التنظيم . والواقع أننا لو افترضنا أن (س) هى كمية العمل التى يقوم بها الفرد ، عندئذ فان ١٠٠ شخص إذا نُظّموا تنظيماً صحيحاً يقومون من العمل بكمية ليست ١٠٠ س فقط . والبراهين الرياضية لا تدحض ؛ ولكن هذه المسألة اجتماعية . فاذا مزجنا الرياضة مع الاجتماع نجد اننا نحصل من تنظيم ١٠٠ شخص على ١٠٠ س تضاعفت مرات عديدة ، لا مرة واحدةً .

والسلوك المشترك المنظم هو خير من السلوك المشترك غير المنظم . فقد يحدث أن ينال الدهماء والغوغاء غايتهم بسرعة دون أن يخضعوا لتنظم ما ، كما يحدث عند ما يفر الناس من بناية التهمتها النيران ؛ غير أن الربح فى هذه الحالة الفجائية ينتج عن التنبه والتحريض على العمل وليس من انعدام التنظيم . لأن التنظيم بقيادة رئيس وتوجيهه يُسهّل إخلاء البناية . وإن القواد العسكريين

وزعماء الأحزاب ، ورؤساء نقابات العمال ، ووكلاء الدعاية والاعلان ، وألوف الجمعيات والجماعات ذات الغايات الخاصة ، يعترفون بما للتنظيم من أثر محمود فى إنفاذ غاياتهم .

وإن قسماً كبيراً من التنظيم الاجتماعى - وليس التنظيم كله - ناتج عن أعمال رتبت عن عمد وتصميم . وقد وجد كثير من المنظمات دون أن يوضع له تصميم خاص أو يجعل له غاية خاصة . إن المثال على قيام تنظيم دقيق عن غير قصد موجود فى نحو اللغات . فالنحو فى أية لغة نشأ من غير تنظيم وتصميم سابق : وكذلك نجد أن نظام الأسرة قد نشأ من غير تنظيم سابق . إن نظام الأسرة دقيق جداً عند بعض الشعوب التى تشعر بوجوده ، ولكنه لم يخلق حسب تصميم معين كما أوجدت هيئة الأمم المتحدة مثلاً . لقد ميز (سمنر[١]) بين المؤسسات الاجتماعية التى جاءت نتيجة قصد وتصميم فى إيجادها ، وبين المؤسسات التى نشأت عن غير قصد وتصميم مع الزمن . وقد دعا الأولى « موضوعة[٢] » وسمى الثانية « ذاتية[٣] »

إذا رمينا حفنة من برادة الحديد على قطعة من الورق نجد أنها لا تتخذ شكلا معيناً ؛ غير أننا إذا بدأنا فوضعنا قطعة مغناطيس على شكل حذوة حصان تحت الورقة ، ثم ألقينا بالبرادة فوقها ، نجد البرادة تتجمع حول طرفى المغناطيس المخفى . وإن الأمر على مثل هذا الوضع مع أفراد الجماعة . إنهم يتجمعون فى بيت ، حول مائدة فى المساكن المعدة للنوم ، أو بالقرب من آجام الصيد وبرك الأسماك . وإن عمليات النوم ، وجمع الأطعمة ، وصنع الآلات والأدوات ، والاتجار لا تتم لمرة واحدة فقط ، وإنما هى تتكرر

---

١ - William G. Sumner, Folkways

٢ - Enacted

٣ - Crescive

وتتجدد دائماً ، وفى خلال التكرار تنتخب أحسن الطرق لاتمامها . ويضم الأفرادَ الذين يشتركون فى تلك العمليات التنظيمُ الناشىء من التكرار المستمر . وكما أن المغناطيس يحتم على البرادة أن تتخذ لهـــا شكلا معيناً ، كذلك نجد أن الرغبات الإنسانية العامة تحتم على الحركات البشرية أن تنتظم فى سلوك اجتماعى خاص . تنشـــأ المنظمات الاجتماعية لكى تسد حاجة اجتماعية معينة .

على اننا لا ندعو كل حركة إنسانية منظمةً اجتماعية . فالكثير من تلك الحركات هو من عادات الجماعة . إن العادات التى هى من قبيل أصول التحية وتناول الطعام مثلاً ليست فى الواقع سوى أمور تتعلق بأصول معيشة الشعب . ولكن عادات الجماعة الموجودة فى كثير من الثقـــافات خلال أزمان طويلة قد اصطلح على تسميتها « المنظمات الاجتماعية » . من الأمثلة على ذلك البابوية ، والأسرة ، والدولة . وهذه المنظمات قد وجدت لتسدّ حاجات معينة لبنى الإنسان كإقرار الأمن بين الناس ، وإيجاد المـــأكل والمأوى ، وتنظيم العلاقات الجنسية ، وتهذيب النشء .

الآن فلنتصوّر ماذا تكون عليه الحال بعد خمسين سنة . ستصبح التجارة غير ما هى عليه فى الحاضر . وسيصيب التغيير الحكومات . وقد يتغير الدين فى بعض البلدان ، كما سيتغير نظام الأسرة . لقد رأينا فى الفصل الخاص باصول الحكم أن التغيير يصيب المؤسسات والمنظمات اليوم ، كما أصابها فى الماضى ، ولكنه اليوم أسرع مما كان . ولكى نتصور ماذا تكون عليه الحال حينذاك علينا أن نبحث فى طبيعة « التطور الاجتماعى » .

ولما كان العالم اللامادى Super organie يتغير بسرعة زائدة فعلينا أن نبحث فى أسباب تغيره ، وماهى وجوه التغير فيه . إننا نعرف جيداً مما سمعناه عن حياة سكان الرُّبع الخالى فى جزيرة العرب أنهم لم يتغيروا فى حيـــاتهم خلال الخمسمئة سنة الأخيرة على الأقل . أما فى بقية البلاد العربيـة مثلاً

فقد وقعت خلال هذه المدة تغيرات عظيمة . لماذا وقعت تغيرات كبيرة فى انكلترا مثلاً ، ولم تقع فى الربع الخالى ؟

سنحاول فيما يلى أن نتلمس الجواب لهذا السؤال مما كشفت عنه الأبحاث الاجتماعية النقابَ من العوامل . وسنبين العوامل التى تساعد على نمـــوّ الثقافة واتساعها والأساليب التى تنمو بها . وهنالك عوامل تساعد على التغير الاجتماعى وعوامل تعوقه . وسوف نبحث فى معوّقات هذا التغير . عندما تقع التغيرات فان قيمتها تظهر فى تأثيرها على الحياة الاجتماعية . وجلىٌّ أن التغير فى فرع من الثقافة ينتج تغيراً فى فرع آخر من فروعها ؛ ولكن طرق التغير تحتاج إلى بحث مسهب يتنـــاول أثر الاختراع فى الحياة الاجتماعية .

إن توجيه التغيرات هو أمر جليل . والتغير ضرورة ملحَّة ، ولكنه ليس مفيداً دائماً . هنالك قوى عاملة فى كل مجتمع دأبها هدم المنظمات القائمة وتعطيل أعمالها وإنتاج ما يسمى «المشكلات الاجتماعية» . وإن تعطيل النظام الاقتصادى مثلاً ينتج إيجاد العمال العاطلين ، والبؤس الاقتصادى . سوف نبحث فى هـذه العوامل المؤدية إلى « التفكك الاجتماعى » . وسنبحث فى العوامل التى تقاوم هذا التفكك . نجد فى المجتمع الحديث كثيراً من الناس همُّهم لا أن يخففوا من حدّة المشكلة فقط ، بل أن يبرهنوا على صحة قيامها أيضاً . ومن هنا تنشأ فكرة « التقدم الاجتماعى » . إن المسألة التى تدور حول قدرة الانسان على بنـــاء عالم أحسن من الذى نعيش فيه هى مسألة هامة . وهذه المسألة تستدعى البحث فى « تكييف الإنسان للثقافة » .

والآن فلنبدأ البحث فى مسألتين هامتين : العمليات التى يتم بها تجمُّع الثقافة ، وسرعة نموّها . إذا صعدت إلى رأس منارة الاسكندرية مثلاً وتلفتَّ حولك ثم صوّبت نظرك فى المدينة التى أمامك ترى عمـــارات ،

وترامات ، وسيارات ، وسفناً ، وسككاً حديدية ، وخطوط تليفون ، وجسوراً ، ومخازن ، ومساجد ، وكنائس ، ومدارس ، ومصانع ، وسينمات ودوراً ومنازل . فاذا كنت باحثاً وسألت : كيف وُجدت كل هذه الأشياء ؟ لعلَّ الجواب يكون : لقد خلقتها خلايا الدماغ الرابضة فى المادَّة الشهباء التى تملأ جمجمة هذا الإنسان المختال الفخور . هذا جواب خادع ! إن هذه الأشياء لم تخلق جميعها دفعة واحدة . قد تكون أرض المدينة بلقعاً قبل مئين من السنين . غير أن إيجاد الأشياء التى رأيتها قد استغرق ما لا يقل عن نصف مليون سنة . إن الإنشاءات التى تغصُّ بها المدينة ترتكز على اختراعات اكتشفت قبل آلاف السنين مثل اللولب (البرغى) والنخل اللذين استعملا فى العصر الجليدى أو قبله .

وإن انقضاء هذه المدة فى النمو يعنى أن الثقافة تتجمع . وإن المدينة الممتدة بجوار المنارة قد وجدت لأن الثقافة تتجمع ؛ إن صانعى الأدوات الأقدمين الذين كانوا يصنعون أدواتهم من الحجارة بقطعها ، حسّنوا أساليب صناعتهم باستخدام المتفجرات . وقد أدخلت مع طول الزمن تحسينات أخرى على تلك الأساليب . فعرف النقْر والجرْش والسَّن والحفر فى تلك الصناعة . ثم استعملت العظام فى صنع الأدوات ، واستعملت القرون واستُخدم العاج أيضاً . وعقب ذلك عهد المعادن التى توجد خالصة من التراب كالنحاس والذهب . وجاء فى الأزمان المتأخرة دور تنقية الحديد وغيره من المعادن من التراب . هكذا تجمعت الثقافة .

ولعلَّ الأبيات التالية تبين أصول تجمُّع الثقافة :

قطرات المياه منها محيط وصغار الحصى تكوِّن أرضا
ودقيقاتنا تؤلف جيلاً بعد جيل فى إثره يتقضَّى[١]

---

١ - Little Drops of water, littlegrains of sand Make the mighty ocean and the Pleasant land

ترجمة الاستاذ الكبير كامل كيلانى

تتجمع الثقافة عند ما يزيد عدد العناصر الجديدة فى أى مدة من الزمن على عدد العناصر التى يهجرها المجتمع لأنها أصبحت غير صالحة للعصر . والعناصر التى تُضم إلى مجموعة الثقافة فى أى إقليم أو ناحية تأتى من مصدرين: فإما أن تُخترَع ؛ وإما أن تُستورَد من إقليم آخر . إن جزءاً ضئيلاً من التراث الاجتماعى فى أى إقليم نشأ محلياً فى ذلك الاقليم . فالتراث الاجتماعى ينمو ويتسع فى إقليم معين عن طريق الإذاعة . ومعنى « الإذاعة » نقل مواد الثقافة من بقعة إلى بقعة ، ونقل تلك المواد من قسم فى ثقافة معينة إلى قسم آخر منها . وتنمو الثقافة فى أقاليم صغيرة محلية . لسنا نجد ثقافة واحدة للأرض كلها . نجد ثقافة ألمانية وثقافة فرنسية مثلاً . إن أمنية المصلحين أن يسود العالمَ يوماً ما ثقافة واحدة . وليست مناطق الثقافات منعزلة بعضها عن البعض تماماً . إنها متجاورة متصلة . ينتج عن ذلك أن الاختراعات التى تنشأ فى منطقة تنتقل إلى المناطق الأخرى . ويكاد يعم استعمال السيارات مثلاً العالم كله . بعض المناطق تستوردها والبعض الآخر يصنعها . لم تخترع السيارة فى كل تلك المناطق . فقد اخترعت فى ألمانيا وانتشرت منها فى جميع أنحاء العالم ودخلت أمريكا فى سنة ١٨٩٣ .

يدخل فى كل اختراع جديد تتضمنه ثقافةٌ ما ، عناصر قديمة إن هنالك استمراراً فى الثقافة . وكل اختراع جديد يرتكز على الاختراعات القديمة التى سبقته ، فلا يمكن إنتاجه إلا إذا أوجدت عناصر تلك الاختراعات . ويستفيد المخترع الحديث من اختراعات أسلافه . لقد برهنت الوقائع التاريخية على صحة النظرية القائلة : ينتج عن ازدياد تجمع الاختراعات ازدياد سرعة التغير الثقافى . ولا يعتبر من الحكمة أن نقول إن العالم ينتج اليوم جميع حاجات الإنسان المادية وأنه لذلك لم يبق مجال جديد للاختراع والواقع أن ثمة حاجة لاختراعات كثيرة ، وقد عدَّد أحد المؤلفين ألف

وخمسمائة اختراع ما تزال الحاجة ماسة اليها . وما دامت هنالك اختراعات جديدة فهناك تغير سريع يصيب الثقافة .

والآن ما هى العوامل التى تعوق التطور الثقافى ؟ هنالك عاملان مهمان يعملان على إعاقة نمو الثقافة : يبطىء التغير الاجتماعى فى حدوثه إذا قل ظهور الاختراعات ، وإذا أعرض المجتمع عن قبـــول الاختراعات بعد ظهورها إلى حيز الوجود .

ما يزال سكان الربع الخالى اليوم يلبسون على رءوسهم الكوفية والعقال كما كان يفعل أسلافهم منذ مئات السنين . وما يزالون يسكنون فى بيوت يقيمونها من الشعر . لماذا ظلت ثقافة هؤلاء الناس ثابتة لم تصبها يد التغير بشىء خلال هذه الأحقاب من الزمن ؟ الجواب : إن ذلك ناتج عن انعدام الاختراعات بينهم . والواقع أن عـــدداً ضئيلاً فقط من الاختراعات يظهر فى المناطق الصغيرة . ثم إن هذه البقعة كانت منعزلة عن العالم فلم تصلها مخترعاته ، ولا مجال لوصولها اليها نظراً لأن السكان لايستطيعون دفع أثمانها لفقرهم المدقع .

وعلى ذلك فان انعدام الاختـــراعات هو من أسباب إعاقة التغير الاجتماعى فى مجتمع ما . إن وجود الاختراع دليل على وقوع التغيير ، وإذا كان عدد الاختراعات قليلاً ، كان عدد التغييرات قليلاً أيضاً . ولنا أن نتساءل الآن : لماذا يقلّ عدد الاختراعات ؟

الاختراع صعب . لم يتمكن العلماء حتى الآن من اكتشاف علاج للسرطان . لقد احتيج إلى انقضاء زمن طويل قبل أن أصبح السفر فى الطائرات مأموناً . وانقضت مئات من السنين إلى أن صارت الآلات

---

١ — Raymond F. Yates, Fifteen Hundred Needed Inventions, 1933.

البخارية على ماهى عليه الآن . كل هذا ينهض دليلاً على أن من الصعب إنتاج الاختراعات ، ومن الصعب جداً إنتاجها إذا كانت معقدة . وعندما حلل الباحثون الصعوبات التى تكتنف إنتاج الاختراع وجدوا أن كل اختراع يستند إلى ثلاثة عوامل :

أولاً : وجود العناصر والمواد الضرورية للاختراع الجديد . ذلك لأن الاختراع هو مادة جديدة تتألف من عناصر لا مندوحة عن وجودها قبل إيجاد الاختراع الجديد . إن وجود الاختراعات والمواد التى يتألف منها الاختراع الجديد هو عامل فى وجوده . ثانياً : لابدّ من وجود الطلب للاختراع ، ونعنى بالطلب الضرورة . ومن هنا نشأ القول المأثور « الحاجة أم الاختراع » . ثالثاً : المقدرة العقلية على الاختراع . وقد تكون هذه المقدرة موروثة ، وقد تكون مكتسبة . ولكنها موجودة على أى حال بنسبة معقولة بين السكان . أما أديسون فكان يقول : إن الاختراع لا يحتاج إلى عبقرية بقدر ما يحتاج إلى عمل شاق متواصل . ولسنا نعلم هل كان جاداً فى هذا القول . وقد اكتشفت بعض الاختراعات فى القديم عرَضاً مثال ذلك أن النار اكتشفت من حك حجرين أحدهما بالآخر .

إن انعدام المعرفة التامة تحول دون إنتاج اختراعات تصلح من أول الأمر للغرض الذى اخترعت من أجله . لذلك نجد الناس يتذمرون من بعض الاختراعات الجديدة تذمراً يعوق نجاحها . وقد تطرح بعض الاختراعات فى السوق ولكن الناس يرفضونها . ويتسبب ذلك عن أن تلك الاختراعات إذا نجحت تؤثر فى أقسام أخرى من الثقافة . وكلما زاد تماسك أجزاء الثقافة الواحدة ، زادت مقاومة الناس للاختراعات الجديدة . وقد تظهر إلى حيز الوجود مقاومة اختراع جديد إذا كان الناس يستعملون اختراعاً قديماً آخر يقضى حاجاتهم حتى لو كان الاختراع الجديد أحسن

وأفضل منه . إن العناصر القديمة — على هذا — تستأثر فى الوضع وتشفع به وتلك ظاهرة تسمى « قوة الاستمرار الثقافى » .

يظهر أن مقاومة التغير هى — من الوجهة السيكولوجية الاجتماعية — من قبيل خلق عادات جديدة . يألف الناس عمل الاشياء على وجه معين زمناً طويلاً ، فيصعب عليهم تغيير ما ألفوه . وكلما طال أمد التعامل على وجه معين ، زادت الصعوبة فى تغييره ، ولذلك نجد الشيوخ يقاومون كل تغيير يصيب طراز حياتهم الذى ألفوه . هذا هو الخوف من كل جديد ، والتعلق بأهداب الحالة الراهنة ، وإبقاء ما كان على ما كان . ولعلّ أشدّ الناس فى مقاومة الجديد الجماعة التى لها حقوق مُكتسبة ، لها امتيازات تدرُّ عليها أرباحاً لو بقى ما كان على ما كان .

ولعلّ من المناسب هنا أن نبحث فى أثر الاختراع فى الحياة الاجتماعية . قد لا يقتصر الاختراع المهم على التأثير فى حالة اجتماعية واحدة . يؤثر بعض الأحيان فى حالات كثيرة فيمتد عمله اليها فى نواح مختلفة . مثال ذلك اختراع الراديو . أثر فى التسلية ، وفى التعليم ، وفى السياسة ، وفى صناعة النقل ، وفى نواحى أخرى كثيرة . وقد عددت لجنة أمريكية عينت خصيصاً لهذا البحث مائة وخمسين مسألة فى الحياة الاجتماعية أثر فيها الراديو[١] .

لقد بحثنا فى الاختراعات المادية . إن هنالك « اختراعات اجتماعية » : وهى تشمل كل اختراع ليس ميكانيكياً ، وكل اختراع ليس اكتشافاً فى العلوم الطبيعية . وهو فى الواقع « اختراع الجماعة » . مثال ذلك كل الاختراعات فى الثقافة غير المادية كالاسپرنتو ، وتأشيرة المرور على جوازات السفر ، وامتحانات الذكاء ، وإصلاحيات الأحداث ، والمخيمات الصيفية وما إلى ذلك .

---

١ — Committee on Recent Social Trends, 1933.

تحدث الاختراعات الاجتماعية تغيراً اجتماعياً أيضاً . وهذا التغيير هو الذى ترمى إليه التشاريع الاجتماعية . إن ضريبة الدخل أو الايرادات التصاعدية مثلاً ، لها أثر اجتماعى مهم : ذلك هو إعادة توزيع الثروة . وإذا كانت الضريبة تصاعدية حادة وأيدتها التشاريع الاجتماعية ، فأنعمت بالفوائد على الطبقات الفقيرة بشكل التأمين الاجتماعى ، فان النتيجة هى أن تأخذ المال من الغنى وتعطيه للفقير . وعلى ذلك فاننا نلاحظ هنا أن اختراعين اجتماعيين أو أكثر تعاونت فيما بينها على بلوغ غاية واحدة هى إعادة توزيع الثروة . وكذلك نجد اختراعين اجتماعيين آخرين هما قوانين تشغيل الأحداث والتعليم الإلزامى ، قد غيرت فى حياة الأسرة ، فحدّت من سلطان الوالدين على أولادهم .

ولما كان كل تغيير اجتماعى يقع بوساطة الأفكار ، يجدر بنا أن نتساءل : من أين تفيض الأفكار ، وما هو مدى تأثيرها ؟ ولكى نجيب على هذا السؤال نقول : إن هنالك نوعين مختلفين من الأفكار ، هنالك الأفكار التى تدور حول الحقائق والأشياء المادية ، وهنالك الأفكار التى تدور حول الخيال . وقد تنشأ الأفكار الخيالية من مطامح الإنسان ومطامعه وآماله ، أو من الخوف ، أو من العواطف الأخرى ، وتسمى تلك الأفكار « المعتقدات [١] » . من هذا القبيل العقيدة بأن يوم القيامة يقع بعد مرور ألف سنة على أيام السيد المسيح عليه السلام . ومن ناحية ثانية قد تنشأ الأفكار من ملاحظة الظاهرات المختلفة . مثال ذلك المعرفة الناشئة عن مراقبتنا لكيفية إدارة دفة سفينة بحرية . ثم إن ثمة أفكاراً هى مزيج من الضربين السابقين . والواقع أن الأفكار الواقعية والأفكار الخيالية هما طرفا مقياس الأفكار وفى المسافة التى بينهما تأخذ الأفكار المتنوعة منازلها . ولعل

---

١ — Carl G. Jung, The Psychology of the Unconscious, 1927

من أمثلة الأفكار التى هى بين الحقيقة والخيال الفكرة الرئيسية فى نظرية « حرية التعامل » Laissez - Faire المتعلقة بأعمال الدولة ، فكثير من الناس يعتقدون أن أحسن الحكومات هى أقلها تحكماً وتدخلاً فى شؤون الحياة . إن القوى الاقتصادية تُوازن نفسها عند تفاعلها لتزويدنا بما نحتاج اليه من الأشياء . وعلى ذلك فان هذه الفلسفة — عند هؤلاء الناس — هى تفكير مقصود . وفى الوقت عينه هنالك حكومات كثيرة قد نجحت فى سياستها عندما اتبعت سياسة معدّلة بالنسبة لنظرية « حرية التعامل » . وهكذا نشأت بعض الافكار من التفكير المقصود ، وبعضها من الملاحظة والمراقبة .

أما تأثير الأفكار — مهما يكن منشؤها — فان العالم المادى يتأثر بالأفكار الواقعية وبالأفكار الناشئة عن الملاحظة والمراقبة ، أكثر مما يتأثر بالمعتقدات . وإن الثقافة المادية لا تلين بسهولة أمام الأفكار الخيالية . مثال ذلك أن الانسان فى هذا العالم الذى تهيمن عليه أسباب المدنية الحديثة ، كثيراً ما يحلم ويتمنى أن يعيش عيشة أجداده القدماء البسيطة . ولكن هذا الحلم يعسر تحقيقه فى زمن الساعات الحديثة والمنافسة التجارية .

على أن المثُل العليا الناشئة عن الأفكار الخيالية تؤثر فى الثقافة المادية . وإن الأفكار المقصودة فى العظمة القومية تحمل أمة صغيرة أن تخصص أكثر من نصف ميزانيتها للبرامج العسكرية . إن فكرة العرق التى اعتنقها الاشتراكيون الوطنيون فى ألمانيا لا تستند إلى أساس صحيح فى علم الإنسان أو علم الأحياء ، ومع ذلك فقد لعبت دوراً كبيراً فى بناء اقتصاد مستقل لألمانيا زوّدها بحاجاتها المادية .

والواقع أن للخيال نصيباً من التأثير على العالم المادى ، كما أن للحقيقة تأثيراً عليه ، ولكن تأثير الحقيقة فيه أبلغ . إن لِادّعاءات دعاة الإعلان — إذا أخذوا الأجر الذى يطلبونه — أنهم يستطيعون أن يجعلوا الناس

يعتقدون بصحة أى شئ يلقونه عليهم ، نصيباً كبيراً من الصحة . وإن أصل الفلسفة الاجتماعية كالفردية والاشتراكية والديموقراطية يدل على أنها مزيج من الأفكار الحقيقية والخيالية . وإن المدن الفاضلة التى خصصنا هذا الكتاب لها هى مزيج من الافكار الحقيقية والأفكار الخيالية أيضاً . والواقع أن التطور الاجتماعى يحدث بوساطة الأفكار ، وأن الثقافة المادية أكثر ما تتأثر من الأفكار الواقعية . وتتأثر تلك الثقافة أيضاً — ولكن إلى حدّ أقل — بالتراث الاجتماعى ، كالفنّ والدين والفلسفة الاجتماعية .

وأبرز ما يكون تأثير الثقافة المادية هو فى المنظمات الاجتماعية . إن الصناعة الحديثة هى مخلوق أوجدته اختراعات توليد القوى ، والماكنات التى تدار بتلك القوى المصنوعة من المعادن . إن بعض النتائج أثرت تأثيراً كبيراً فى التطورات الاقتصادية التى أثرت هى بدورها على حياة الأسرة . وكادت بعض التأثيرات تكون روائية ، كما هى الحال فى تأثير الإجهاض على نسبة المواليد وعلى الأخلاق . أما الدين فلم يأثر كثيراً بالتطورات المادية ، ذلك لأن موضوعه هو غير القيم المادية ، ومع ذلك فان العقائد لم تنج من أن يصيبها ظل من أثر الاكتشافات العلمية . ولعلّ الدولة هى أشدّ المؤسسات تأثراً بتغير الأدوات والمعدات ، وقد تأثرت أساليبها كثيراً باتتاج اختراعات الأسلحة والمعدات الأخرى ، وتأثرت باختراعات المواصلات والنقل . وهذه الاختراعات عملت على توسيع منطقة حكم الدولة كما عملت على توسيع مدى اختصاص وظائفها .

وعلينا الآن أن نبحث فى التفكك الاجتماعى : ينتج التفكك الاجتماعى من التغير السريع الشامل . وقد يكون ذلك التغير عنيفاً وسريعاً كما فى حالة الحرب والفيضان ، وقد يكون لينـــاً بطيئاً كما يؤثر كساد حالة التجارة فى سوق الأموال غير المنقولة ، وكما تتأثر تجارة البلاد المحايدة من

وقوع الحرب فى البلاد المجاورة لها . ويحدث التفكك عادة من تألف القوى التى تحدث التغير الاجتماعى . والآن ما هى العوامل الأساسية التى تحدث التفكك الاجتماعى ؟ أحد تلك العوامل ضياع التوازن بين الإنسان وثقافته وبين المحيط الطبيعى الذى يعيش فيه . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد ينتج انتشار الأوبئة إبادة سكان بلدة أو منطقة بكاملها . يقال إن الوبأ الاسود عند ما اجتاح انكلترا فى سنة ١٧٤٨ أهلك ثلث السكان أو نصفهم فى مدة تقل عن السنة الواحدة ، وأن الكوليرا قضت على جميع سكان مدينة زعز (التى كانت إلى جنوب البحر الميت على مقربة من العقبة) وكانوا حوالى أربعين ألفاً فى القرن السابع للهجرة . ويفكك الحياة الاجتماعية أيضاً الزلازل والبراكين والفيضانات وغيرها من المصائب التى ينزلها غضب الطبيعة بالجنس البشرى . ويتوقف مدى التفكك الاجتماعى على أهلية الثقافة الموجودة لأن تتلاءم مع هذه الظاهرات الطبيعية . لقد تسلحنا اليوم بمعرفة تمكننا من منع حدوث الأوبئة ووقف سريانها ، ومن بناء بيوت من الحديد — كما فى سان فرانسسكو — لا تؤثر فيها الزلازل، ومن إقامة السدود لمنع الفيضانات . إن قوة العوامل الجغرافية فى إحداث التفكك الاجتماعى تتوقف إذن على حال الثقافة المحلية . كان أثر هذه العوامل شديداً فى المجتمعات الجاهلة وفى الأزمنة القديمة . وقد قطعت وسائل النقل الحديثة داء الجوع من كثير من البلدان . إلا أن العوامل الجغرافية كالاعصارات والفيضانات والقحط ماتزال ذات أثر فعال فى المشكلات الاجتماعية .

ومن العوامل التى تحدث التفكك الاجتماعى فقدان التوازن بين طبيعة الانسان الموروثة وبين مقتضيات حياة الجماعة وثقافتها . إن طبيعة الإنسان تتغير بوساطة جرثومة الحياة ببطء متناهٍ بينما تتغير الثقافة بسرعة . تتطلب حياة الجماعة التعاون بين الافراد ، ورعاية حقوق الآخرين ، غير أن نزعة

الإنسان الى التعدى ، وحب التملك ، لم تخضع بعد لمقتضيات حياة الجماعة . قد يسرق الإنسان أو يرتكب جريمة القتل فيحدث بعمله تفككاً ، وقد يسبب رجل مشاكس وقح مقداراً كبيراً من التفكك أيضاً .

أما العامل الرئيسى الثالث الذى يحدث التفكك الاجتماعى فهو التباعد الذى يحدث بين أجزاء الثقافة الواحدة المتآلفة عند ما يتغير كل جزء منها على حدة بنسب متغايرة وسرعة غير متساوية . مثال ذلك : إن مشكلة البطالة ناشئة من الاختلاف فى درجات التغير . تسلب الاختراعات الجديدة من العمال وظائفهم قبل أن توجد لهم أعمال أخرى . وقد تتسبب البطالة عن الكساد التجارى عندما يتحرك الإنتاج بسرعة تزيد عن السرعة التى تتحرك بها القوة الشرائية عند المستهلك . فالبطالة إذن تمثل ـ فى هذه الحال ـ التغير فى الأحوال التجارية الذى يخب فى مجيئه فيسبق التغير الذى يصيب السكان .

يعتور حياة الإنسان الحديثة كثير من التبلبل والاضطراب . عند ما تكون التغيرات عنيفة وكبيرة ـ كما هى اليوم ـ فتستولى الحيرة على الناس وتأخذهم الدهشة . هل تسير حياة المجتمع وفاقاً لخطة رسمتها يد الله العلى العظيم ؟ لا شك أن قدرة الله جل وعلا تؤثر فى حياة الإنسان . لقد ذكرنا قبلا أن الوراثة ، والثقافة ، والجماعة ما تزال تعمل على مقاومة المحيط الطبيعى البطىء التغير ، وفى عملها تؤثر فى شخصية الانسان وخبرته وتوجه سير المدنية فى المستقبل . ولكن هل ثمة وجهة خالصة تصير المدنية إليها ؟ إن محاولة الاجابة على هذا السؤال تستدعى البحث فى فكرة «الارتقاء Progress»

ارتقى الانسان إلى حالته السامية من حالات دنيا . ويعتقد الكثيرون منا أن الارتقاء ضرورة لا بد من حصولها . ولكن هذا الاعتقاد خاضع للشك فى صحته . إن اليمن اليوم أغنى مما كانت عليه قبل قرن من الزمن مثلا .

ولكن هل جمع الثروة يعتبر ارتقاءً . ندور حول العالم اليوم فى مدة وجيزة إذا قيست بالزمن الذى كان يقتضيه هذا الأمر فى السابق ، ولكن هل يجلب هذا التغير السعادة والطمأنينة والراحة إلى نفوسنا ؟ عندما يزور بعض الشرقيين أمريكا مثلاً تدهشهم المدنية المادية الحديثة ، ولكنهم — فى الوقت عينه — يتساءلون : هل يمثل ما شاهدوه ولمسوه ارتقاءً فى الحياة ؟

ينتج عن هذا البحث استحسان التمييز بين « التطور » و « الارتقاء » . التطور هو التغير فى اتجاه معين . عندما نتحدث عن التطور البيولوجى نعنى توالد بعض الكائنات الحية من كائنات حية أخرى . أما فى التطور الثقافى فان لكل اختراع جديد تاريخاً خاصاً به ، أى إنه ينشأ من اختراعات قديمة معينة ويستند اليها . يصف التطور سلسلة من التغيرات وقعت فى نظام خاص وهو يشير إلى حالة خارجية لا تُقدَّر بأنها حسنة أو سيئة . أما الارتقاء فانه يعنى التغير من الأدنى إلى الخير ، ولذلك فهو يتضمن حكماً بالتقدير الحسن أو حكماً بالتقدير السىء .

وليس فى وسعنا البحث فى الارتقاء دون الاستعانة بمقياس أو معيار نتبين به الدرجة والمستوى . والمقياس ذاتى نسبى . إن القيمة — كالذوق — لا تخضع لمقياس De gustibus non disputandem est وقديماً قيل «لا جدال فى الذوق » . قد يعتبر شخص ما ، تغيراً معيناً فى الثقافة ، ارتقاءً . وقد يعتبر شخص آخر ذلك التغير بعينه تقهقراً اجتماعياً : ذلك لأن لكل منهما اعتبارات مختلفة سار على هديها .

لقد ارتقى العالم من الوجهة المادية . يستعمل الناس المواد والآلات الفولاذية والمحركات البخارية مثلاً بدلاً من الأدوات الحجرية التى استعملها إنسان العصر الحجرى . بيد أن هذا التقدم لا يعتبر ارتقاءً روحياً ، وإنما هو وصف للأمر الواقع ، وهو أن الآلات والأدوات تعددت

وتباينت وزادت صلاحيتها لشؤون الحياة المادية . إننا نجزم بأن هنالك ارتقاءً أصاب صناعة الآلات لأن لدينا مقياساً نصدر حكمنا بالاستناد إليه : ذلك لأننا نقيس صلاحية أدوات العصر الحجرى والعصر الحاضر لقطع الحجارة بالنسبة الى النتيجة . ليس هناك شيء فكرى نعمل على استنباطه فى هذه الحال . أما لو كان غرضنا أن نقدر مدى تأثير استعمال الآلات على المجتمع بالنسبة لأمر معين كالسعادة مثلاً ، فان الأمر يختلف ولا يستطاع الوصول فيه إلى نتيجة قاطعة . إننا لا نجد قيمة واحدة متماثلة لجميع الأشياء فى كل الثقافات وفى جميع الأوقات . مثال ذلك أنه بالرغم من أن السرقة محرّمة فى جميع الأديان ، إلا أن العبيد اعتادوا أن يسرقوا من أسيادهم ، واعتادوا أن لا يعتبروا السرقة على هذا النحو محرّمة .

يعنى « الارتقاء » التقدم فى إحراز العيش الرغيد بوجه عام . وقد أنكر بعض علماء الاجتماع وجود ارتقاء مافى حياة الانسان . قال (دوب Doob) فى كتاب له أصدره سنة ١٩٤٠ [١] : « وهكذا فان علماء الانتروبولوجيا قد حاولوا أن يزيلوا فكرة الارتقاء من نظامهم . فهم يقرّون بوقوع تغير فحسب ، أو لعلهم يقرون بنزعة تتجه بالحياة نحو زيادة التشويش والاضطراب . وليس التغير أو التشويش والاضطراب بحسن أو سيء ، هنالك تفاوت فى الدرجة فقط وليس فى النوع أو الفاعلية والتأثير ... إن اتجاه الارتقاء التاريخى لا يبرز لنا ارتقاءً ما » . أما (هيلدين Heldane) فقد كتب فى سنة ١٩٣٢ [٢] مايلى : « لقد استعملت كلمة (ارتقاء) وكلمة (تقدم) وكلمة (انحطاط) [٣] على الوجه الذى يليق بمن يطرق أبحاثاً

---

١ — The Plans of Men, by L. W. Doob.

٢ — T. B. Holdane, The Causes of Evolution, 1932, p 153

٣ — ارتقاء Progress ، تقدّم Advance ، انحطاط Degeneration

كأبحاثنا هذه أن يستعملها ليعبر بها عن أفكار معينة ؛ غير أنى أعلم علم اليقين أن هذه الاصطلاحات لا تمثل إلا نزعة الاختيال والفخر الملازمة للانسان . . . إن إنسان اليوم هو ـ على الأرجح ـ أحد المخلوقات العاقلة التى ما تزال بدائية وناقصة . . . وإنه حيوان أسوأ حظاً من القرد . . . علينا أن نذكر ـ عند حديثنا عن الارتقاء ـ فى التطور ، أننا ننسحب نسبياً من ميدان المادية العلمى إلى أرض القيم الإنسانية السبخة » . وقد خطّأ جوليان هكسلى هذا الرأى . قال فى كتابه الصادر فى سنة ١٩٤٨ ما يلى [١] : « إننى أنكر على هيلدن هذا الرأى . لقد أهمل ملاحظة أن الإنسان يتحكم بالطبيعة ويعيش مستقلاً عن محيطه أكثر من أى قرد . إن الإنسان آخر الأنواع الحاكمة التى تتطور . لذلك فان لنا مبرراتٍ كثيرةً إذا ما دعونا النزعات المؤدّية إلى تقدّمه ارتقاءً . إن القيم الإنسانية ضرورية لإحراز أى ارتقاء فى المستقبل ؛ ولكن القيم البيولوجية كانت تعمل عملها قبل أن يظهر الإنسان إلى الوجود » .

والآن فلنبحث فى المسألة التى كثيراً ما تخطر على بال كل إنسان رزق نعمة التفكير : ما هى غاية الإنسان فى حياته ؟ إننا نجد كثيراً من الشعراء والفلاسفة وعلماء الدين وغيرهم من بنى الانسان يحاولون أن يجدوا هدفاً غريباً لحياة الإنسان . بعضهم يجد غاية الحياة الإنسانية واضحة فى الكتب السماوية التى أوحاها الله جل وعلا إلى رسله ؛ وبعضهم يحاول أن يستنبطها من الظواهر الطبيعية ، ومن الآيات الطبيعية التى يستندون اليها فى بيان غاية الحياة ، حياة النشوء والارتقاء . إن تاريخ الحياة ، على ما يعتقدون ، يؤكد وجود قوة عظيمة وجهت الإنسان فى حياته فى الماضى ، وهى مسيطرة على مقدوراته فى المستقبل . وهذه القوة هى واجب الوجود تبارك وتعالى .

---

١ — Julian Huxley, Evolution, p. 565

لقد أشار جلال الدين الرومى إلى حديثين شريفين فى ظاهرهما تناقض كبير : الأول ، الرضا بالكفر كفر ، والآخر من لم يرض بقضائى فليطلب رباً سواى . وقال شارح ديوانه ما نصه : من المعلوم أن جميع أفعال العباد مندرجة تحت مشيئة الله وقضائه . والرضا بالقضاء واجب لما علمت من الحديث القدسى : من لم يرض بقضائى فليطلب رباً سواى . والحال أن الرضا بالكفر كفر : فان رضى عبد بالكفر الذى هو قضاء الله تعالى كفر وإن لم يرض به فهو تارك للواجب [١] . وقد جعل الله تعالى الغاية من حياة الناس عبادته « وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون » أى إلا ليكونوا عباداً لى ، « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . لقد أعدّت مشاعرهم لأن تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجتهد فى جذبها ودفعها غاية جهدها ، وهم ليسوا كذلك ، بل أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم إلى النار

هذا من بعض التعليلات فى غاية حياة الانسان . على أننى أعتقد أن هذه هى الأسباب التقديرية ، وهنالك إلى جانب تلك الأسباب ، الغايات المستندة إلى عناصر التطور : من التكيف للمحيط ، أو الاختصاص ، الى الارتقاء البيولوجى ، هى غايات ظاهرية فقط . وهى من إنتاج قوى عمياء ، كما أن سقوط حجر من مكان سحيق وحركة المد والجزر فى الأمواج هى

---

١ - توفيق ميان : اين دو حديث كه الرضا بالكفر كفر
وحديث ديكركه من لم يرض بقضائى فليطلب رباً سواى
ص ١٩٨ من الجزء الثالث من شرح المثنوى تأليف الشيخ يوسف ابن أحمد المولوى طبعة سنة ١٢٢٣ هـ

من إنتاج قوى طبيعية عمياء . إننا نحن الذين أوجدنا غاية للحياة نتلمسها فى الدين وفى التطور كما اعتبر الانسان القديم أن لقوى الطبيعة (كالأعاصير والزلازل) عواطف وشهوات وإرادة . وإذا أردنا أن نضع غاية نتوخاها لإنسان المستقبل علينا أن نضع هذه الغاية بأنفسنا . إن الغايات توضع فى الحياة ولا تكتشف . ولعل ما كتبه العلامة الاستاذ محمد عبد العظيم الزرقانى فى كتابه (مناهل العرفان فى علوم القرآن) فى مبحث خلق الأفعال هو من خير ما يصلح لأن نختم به هذا الفصل . قال :

فى القرآن الكريم والسنّة النبوية نصوص كثيرة على أن الله تعالى خالق كل شئ ، وأن مرجع كل شئ إليه وحده ، وأن هداية الخلق وضلالهم بيده سبحانه [١] . . . هذه النصوص وأمثالها ، إذا نظر العبد إليها لا يسعه إلا أن يرد الأمور كلها إلى الله ، معتقداً أنه الواحد الأحد ، لا شريك له فى ملكه ولا فى ناحية من ملكه ، وهى أفعال التكليف من عباده .

ويظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية ، ناطقة بوحدانية الله فى كل شئ ، وبأن العبد لا يعقل أن يكون خالقاً لما اختار من أفعاله ، لأنه لو كان خالقاً لها لكان عالماً بتفاصيلها ، لكنه يشعر من نفسه بأنه تصدر عنه أشياء كثيرة جداً من عمله الاختيارى دون أن يعرف تفاصيلها ، كخطوات المشى وحركات المضغ فى الأكل ونحوها ، وإذاً فليس العبد هو الخالق لها .

بجانب هذا توجد نصوص كثيرة من الكتاب والسنّة ، تنسب أعمال العباد إليهم ، وتعلن رضوانَ الله وحبه للمحسنين فيها ، كما تعلن غضبه وبغضه للمسيئين منهم [٢] . وهذه نصوص إذا نظر العبد إليها ، لا يسعه إلا

---

١ - ص ٥٠٦ ٢ - ص ٥٠٨

ان يردّ أعمال العباد الاختيارية إليهم ، معتقداً أنهم يستحقون ثوابها إن أحسنوا ، وعقابها إن أساءوا . ويظاهر هذه الأدلة النقلية أدلة عقلية أيضاً شاهدة بعدالة الله وحكمته ، لأن العبد لو لم يكن موجداً لما اختار من أعماله لما كان ثمة وجه لاستحقاقه المثوبة أو العقوبة ، وكيف يثاب أو يعاقب على ما ليس له ولم يصدر منه .

أهل السنة بهرتهم النصوص الأولى والأدلة العقلية التى بجانبهـــا ، فرجحوها ، وقالوا : إن العبد لا يخلق أفعالَ نفسه الاختيارية ، إنما هى خلق الله وحده . وإذا قيل لهم : كيف يثاب المرء أو يعاقب على عمل لم يوجده هو ؟ وكيف يتفق هذا وما هو مقرر من عـــدالة الله وحكمته فى تكليف خلقه ؟ قالوا : إن العباد — وإن لم يكونوا خالقين لأعمالهم — كاسبون لها . وهذا الكسب هو مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب . وبه يتحقق عدل الله وحكمته فيما شرع للمكلفين .

أما المعتزلة فقد بهرتهم النصوص الثانية وما ظاهرها من برهان العقل ، فرجحوها وقالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ، أليس الله خالق كل شئ ، ومنها أعمال العباد ؟

هكذا نجد لكلتا الطائفتين وجهة نظر قوية ، وتأويلاً سائغاً فيما تؤوله من النصوص المقابلة للنصوص التى بهرتها فرجحتها .